ظاهرة التطوّر الدّلاليّ في اللّغة العربيّة

The Phenomenon of Semantic development in the Arabic language

د. هشام فرّوم
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة الشاذلي بن جديد– الطارف – الجزائر

الملخص:

ظاهرة التطوّر الدّلاليّ هي تغيير الألفاظ لمعانيها؛ ذلك أنّ الألفاظ ترتبط بدلالتها ضمن علاقة متبادلة فيحدث التطور كلّما حدث تغيّر في هذه العلاقة من خلال التغيير في علاقة التلازم والملازمة الموجودة بين طرفيّ الدّليل اللّغويّ: الصورة الصوتيّة والصوة الذهنيّة، سواء بانتفاء هذا التلازم من خلال ارتباط الصورة الصوتية بصورة ذهنية جديدة على حساب الصورة الذهنيّة القديمة، أو بتنوّع العلاقات التلازميّة فيصبح للصّورة الصوتيّة الواحدة أكثر من صورة ذهنيّة.

الكلمات المفتاحية:

التطور– الدلالة – الحقيقة – المجاز

Abstract :

the phenomenon of Semantic evolution is the change of words to meanings. The words are related to their relationship in a reciprocal relationship. The evolution occurs whenever there is a change in this relationship through the change in the correlation relationship between the two ends of the linguistic evidence: in the form of a new mental image at the expense of the old mental image, or the diversity of the symbiotic relations, so that the single sound image becomes more than a mental image.

Keywords: Development - Sementic - Truth – Metaphor.

مقدمة

الأشياء في هذا الكون محكومة بحركة دائبة متداخلة تتفاوت بين السرعة والبطء، صعودا أو نزولا، ولا تني هذه الأشياء بحكم هذه الحركة أن تنزع نفسها من حالتها إلى حالات أخرى تبعد فيها عن الأصل قليلا أو كثيرا، ونادرا ما نجد شيئا بقي على حاله وهذا هو دأب الكون، والامتياز فيه للإنسان يفرق عن الحيوان في استثمار هذه الحركة لتجديد حياته ومجتمعه وبعث الرّوح فيها بشكل مستمر.

وهذا التطوّر والتغيّر لا يعني أنّه يسير بوتيرة واحدة قسرية لا إرادية مع كلّ الأشياء أو حتّى مع الأشياء المتعددة بضمن التصنيف الواحد، فقد تتفاوت حالة التغيّر، ويُحْتَمَل أن يكون العَمْدُ فيها في أحيان كثيرة[1].

ويعدّ التغيّر الاجتماعي وما يصحبه من تحولات وتبدلات في المجتمع ومكوناته أوضح المسالك وأبرزها في التطور بصورة عامة.

إنّ التغيير الاجتماعي في أبسط صوره ما يطرأ على البناء أو الوظائف الاجتماعية والأشكال الثقافية في مجتمع ما، في حقبة زمنية محددة، بفعل عوامل متعددة منها الداخلي الذّاتي والخارجي –كالاحتكاك الثقافي– وفيها الرئيس والثانوي. تتداخل كلها بنسب متفاوتة يحكمها الشيء المتغيّر نفسه واتجاه التغيّر [2].

واللّغة باعتبارها ظاهرة انسانية واجتماعيّة تخضع لما تخضع لها الظواهر الاجتماعيّة؛ فهي محكومة بحركة التغيّر والتطوّر؛ لأنّها سلوك ونشاط اجتماعيّ يتماشى مع طبيعة المجتمع وخصوصياته الحضارية لذلك فاللغة تخضع للتطور اللغويّ في أصواتها ومعجمها وتراكيبها.

وبالنّظر إلى أنّ فكرة التطوّر نقطة ارتكاز تقوم عليها الدراسة في مختلف فروع العلم، يمكن أن نفترض أنّ اللغة في تطوّر مستمر يتنازعها فيه عاملان متناقضان تجاهد اللغة في الاحتفاظ بتوازنها بينهما [3]، وهذان العاملان كما يراهما (دارمستيتر) هما [4]:

أ– المحافظة: وهي نزعة طبيعية عند المتحدّثين باللّغة سعَى إلى الإبقاء عليها كما عرفوها في جميع أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لكي لا تتغيّر ولا تختلف.

ب– التغيير: وهو قوة تعمل على دفع اللغة نحو التطوّر في جميع أنظمتها وعليه تكون اللغة في صراع بينهما، فإذا تمسّكت بالقديم المحافظ جمدت وتخلّفت، وإذا ما فتحت صدرها للتطوّر من غير حدود ضاعت شخصيتها القائمة على الانتظام، وتعرّضت للتشعّب والاندثار، فالتغيّر لم يأت عبثا أو حشوا أو إفسادا وإنّما جاء لمقابلة حاجات النّاس في المجتمع الّذي لا يكفّ عن التغيّر في كلّ مظاهر السلوك فيه[5].

وبالتالي لابدّ للغة أن تخضع لعمليّة التوازن بين هاتين القوتين كي تصل إلى توع من التطور الهادئ الّذي بالقديم وتراثه، ولا يرفض الجديد ومتطلباته، حتّى تستطيع أن تضطلع بمهمّة التعبير والتواصل بامتلاك المقوّمات التي تساعدها على الإيفاء بمتطلبات مستعمليها من الألفاظ الدّالة على المفاهيم والمعاني.

مفهوم التطوّر الدلاليّ:

التطورّ لغة: ما عاكس الجمودَ والسكونَ، بل هو التحوّل إلى الأفضل[6]، جاء في القرآن الكريم: "وَخَلقناكم أطوارا"(**سورة نوح، آ 17**).

وقد أورد ابن منظور في باب (طور) المعاني التالية: "الطور: التارة، تقول: طورًا بعد طور؛ أي تارة بعد تارة، وجمع الطّور أطوار، والنّاس أطوار؛ أي أطياف على حالات شتى. والطّور: الحال، وجمعه أطوار، وقال ثعلب: أطوارًا أي خِلقًا مختلفة كلّ واحدة على حدة... والأطوار: الحالات المختلفة والتارات والحدود، ... وحدها طور، ... والطّور: الحد بين الشيئين"[7].

وجاء في المعجم الوسيط أنّ التطوّر هو "التغيير التدريجيّ الّذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها ويطلق أيضا على التغيير التدريجي الّذي يحدث في تركيب المجتمع أو العلاقات أو القيم السائدة"[8].

التطوّر اصطلاحا: ولا تختلف دلالة التطور في المعنى الاصطلاحي عن دلالته في المعنى اللغوي بل هي تشكل امتدادا لها من حيث أن "إطلاق لفظ (التطور) على هذه الحالة؛ لأنّه انتقال بالكلمة من طور إلى طور"[9]، من خلال تغيّر في معاني الكلمات؛ ذلك أنّ الألفاظ ترتبط بدلالتها ضمن علاقة متبادلة، فيحدث التطوّر الدلالي كلما حدث تغيّر في العلاقة من خلال الانتقال من المعنى الضيق أو الخاص إلى المعنى الاتساعي أو العام، وقد يحدث العكس.

يقول ستيفن أولمان: "سبق أن عرّفنا المعنى بأنّه علاقة متبادلة بين الدال والمدلول، ... وعلى هذا يقع التغير في المعنى كلّما وُجِدَ أي تغيّر في هذه العلاقة الأساسية"[10]. وترى نور الهدى لوشن أنّ مفهوم التطوّر متعلّق بالتغيرّات الطّارئة على العالم من حيث هو "عمليّة تكشف عن الاتجاهات والعوامل الخراجية والداخلية للظواهر، وتؤدّي إلى ظهور الجديد، فالواقع لا تبقى ظواهره على حالة واحدة ثابتة وإنّما قَدَرُ هذه الظواهر أن تهبّ عليها رياح التبديل والتغيير"[11].

وهو على مستوى اللغة تطوّر خارجيّ كما جاء في تعريف إبراهيم السامرّائي: "وهذا النوع من التطور بطيء غير أنّه لا يعرف التوقّف وهو يتناول اللون الخارجي للغة من حيث الأسلوب ومن حيث الدلالة المعنوية"[12].

ويعدّ التغيرّ والانتقال من شكل إلى شكل آخر، أو من واقع إلى واقع أفضل المفهوم السائد لمصطلح التطوّر، غير أنّ هذا المفهوم ليس معياريا؛ بمعنى أنّ التطوّر قد لا يكون بالضرورة انتقالا إلى الأفضل، خاصة فيما تّصل بموضوع اللّغة وتطوّرها، فقد يكون التطوّر سلبيا يحكم على مفردة ما بالموت والزوال والانقراض؛ لذا فإنّ مفهوم التطوّر بهذا الشّكل غير دقيق، ولذلك يكون استخدام تركيب (التغيير الدلالي) أكثر دقة في هذا المجال.

وعندما نستخدم لفظة (تطوّر) فنحن أيضا بصدد الحديث عن وضع أفضل، أو الحكم بأنّ الوضع الجديد الّذي تمّ الانتقال إليه هو الأفضل، "كما أنّ استخدام اللّغويّين المحدثين

لكلمة (التطوّر) لا يعني تقييم هذا التطوّر والحكم عليه، فإنّه لا يعني عندهم أكثر من مرادف لكلمة (التغيير)"[13]؛ لذلك فقد عدل بعض اللّغويّين عن مصطلح (التطوّر) إلى مصطلح (التغيّر)، وفي هذا الشأن يرى أولمان "أنّ الحقيقة العلميّة الّتي لا مراء فيها اليوم هي أنّ كلّ الألسنة البشريّة ما دامت تتداول فإنّها تتطوّر، ومفهوم التطوّر هنا لا يحمل شحنة معياريّة ى إيجابا ولا سلبا، وإنّما هو مأخوذ من معنى أنّها تتغيّر؛ إذا يطرأ على بعض أجزائها تبدّل نسبيّ في الأصوات والتراكيب من جهة، ثمّ في الدلالة على وجه الخصوص، ولكن هذا التغيّر من البطء بحيث يخفى على الحس الفردي المباشر"[14].

وهكذا يكون مفهوم التطوّر الدلالي هو: التغيرّ الّذي يطرأ على المفردة، سواء أكان المعنى المتطوّر دلاليا جديدا أم كان قريبا من الدلالة السابقة، أو حتّى لو انقرضا المعنى الأساسي للكلمة نتيجة تعرّضها لعوامل معيّنة.

ويكون إطلاق لفظ (التطوّر) على هذه الحالة باعتبار كون المفردة تنتقل من طور إلى طور؛ أي من حال إلى حال[15]، على أن لا يفهم من هذه الحركة التطوريّة التوجّه نحو الأفضل دائما "فربّما لا تتطوّر اللّغة نحو مستوى متقدّم رفيع، بل تنزل إلى درك من التغيّر والتبدّل تبعا للمستوى الحضاري والثقافيّ الذي عليه الأمّة"[16].

وهذا التطوّر أمر حتميّ وجبريّ يحدث بحيث لا يملك أحد إيقافه، وهو حسب أولمان في مرحلتين [17]:

1. **الأولى**: مرحلة التغيّر نفسه، أو الابتداع والتجديد، وهي بذلك عمل فرديّ وإن تصادف أن يتفق أفراد لا حصر لهم على الابتداع في وقت واحد.
2. **الثّانيّة**: مرحلة الانتشار الّتي يترتب عليها استعمال الآخرين للمعنى الجديد، وهي مرحلة اجتماعية معتمدة على قوّة التقليد الّذي يضمن له الدّخول في النظام اللّغويّ.

وقد سمّى بيير جيرو المرحلة الأولى بـ (الخلق الفردي الواعي) والمرحلة الثّانية بـ (الانبثاث الاجتماعي)[18].

وتغيرّ المعنى ليس سوى جانب من جوانب التطوّر اللّغويّ الّذي يتمّ ضمن طبيعة اللّغة الخاصّة، فلا شيء ثابت فيها بصورة تامّة، فكلّ صوت، وكلّ كلمة، أو تعبير، أو أسلوب، يكوّن شكلا أو صورة متغيّرة ببطء وبقوّة غير مرئيّة أو مجهولة وتلك هي حياة اللّغة[19].

وحينما نقرّر أنّ التطوّر الدلالي أمر حتميّ وجبريّ فإنّ هذا لا ينفي أن يكون في بعض حالاته مقصودا على نحو ما تعمد إليه المجامع اللّغويّة والهيئات العلميّة من وضع دلالات جديدة للألفاظ ممّا يتطلّبه مواكبة التقدّم العلميّ والتطوّر التقنيّ[20]؛ لذلك يدخل في التطوّر المقصود والمتعمّد ما نجده في لغة الأدب عامة والشعر خاصة بهدف خلق جوانب جمالية وإمتاعية في النص الأدبي والّذي قد يصل حد غموض الدلاة على نحو ما نراه اليوم في كثر من المدارس الشعريّة.

ويكون التطوّر الدّلاليّ من خلال التغيير في علاقة التلازم والملازمة الموجودة بين طرفيّ الدّليل اللّغويّ: الصورة الصوتيّة والصوة الذهنيّة، سواء بانتفاء هذا التلازم من خلال ارتباط الصورة الصوتية بصورة ذهنية جديدة على حساب الصورة الذهنيّة القديمة، أو بتنوّع العلاقات التلازميّة فيصبح للصّورة الصوتيّة الواحدة أكثر من صورة ذهنيّة. هذا ما نوضّحه من خلال المخططين الآتيين:

المخطط الأوّل:

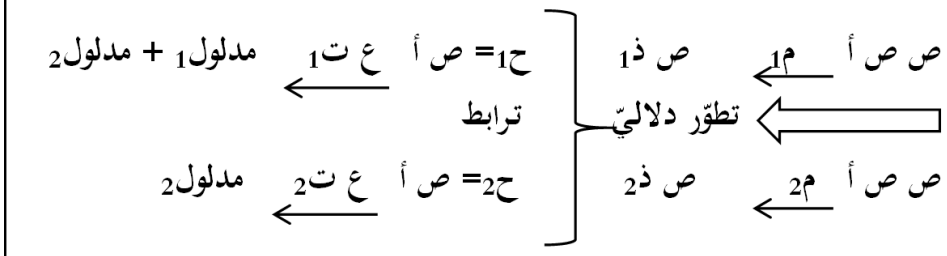

ص ص = صورة صوتية. ص ذ = صورة ذهنيّة. م = مواضعة. ح = حقيقة.
ع ت = علاقة تلازم.

المخطط الثّاني:

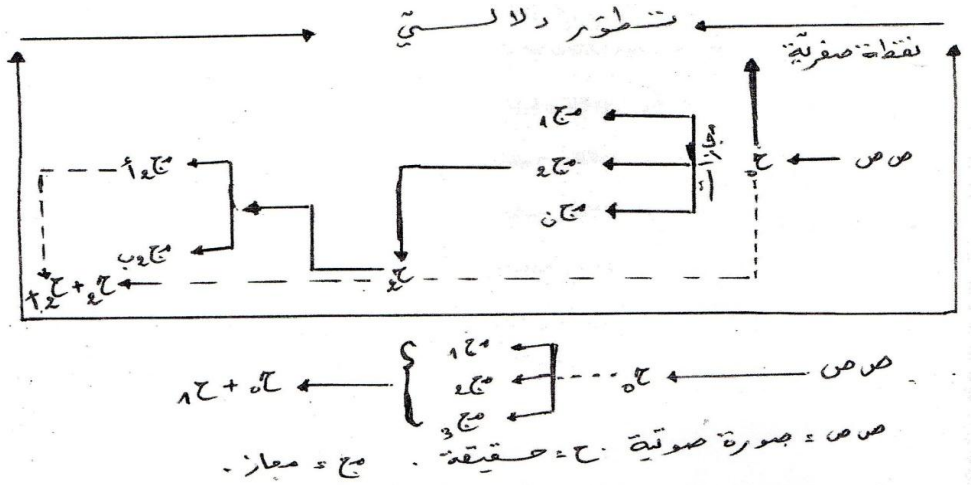

يوضّح المخطط الأوّل: علاقة التلازم الموجودة بين صورة صوتيّة ما وصورتها الذهنيّة وكيف أنّ هذه العلاقة عرضة للتغيير أو حتى للانتهاء أو الفناء بسبب التطوّر الدلالي.

فأيّ صورة صوتيّة مرتبطة بصورة ذهنيّة معيّنة، يبدأ هذا الارتباط من خلال مبدأ المواضعة ومع التداول والشيوع تصبح الرابطة بينهما علاقة تلازميّة:

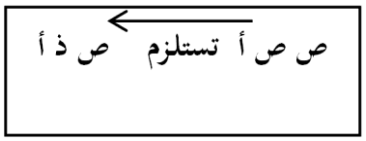

ولكن هذه العلاقة في عرضة دائمة للتغيّر والتبدّل، وهذا بسبب التطوّر الحاصل في اللّغة باعتبارها كائن حيّ يحيا بحياة مستعمليه، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ صفة التلازم غير صفة اللّزوم. هذا التغيّر يكون وفق نمطين:

الأوّل: انتفاء علاقة التلازم بشكل نهائيّ وفق المعادلة التاليّة:

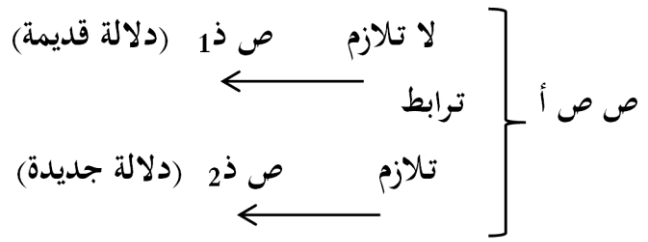

الثّاني: بقاء علاقة التلازم الأولى مع وجود علاقات تلازميّة أخرى كما يلي:

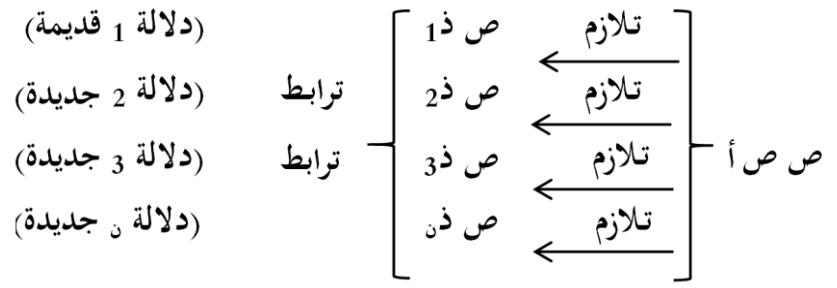

يبدأ التطوّر الدلاليّ من خلال المخطط الثّاني حين تستعمل الكلمات للدلالة على معان مجازيّة لأغراض بلاغيّة تبليغيّة محدّدة، وبكثرة الاستعمال والشيوع ترتقي هذه الاستعمالات المجازيّة إلى مستوى الحقيقة وفق حالتين:

الحالة الأولى: معايشة الحقيقة الأصليّة أو الأولى للحقيقة الجديدة أو الطارئة، كما في المعادلة:

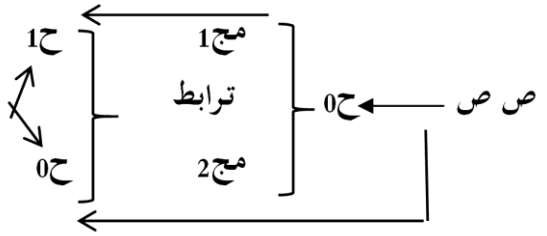

الصورة الصوتيّة تحيل إلى مدلولين اثنين بشكل تلازميّ (ح0+ح1).

الحالة الثّانيّة: انتفاء الحقيقة الأولى وبروز المجاز كحقيقة بدلا عنها كما يلي:

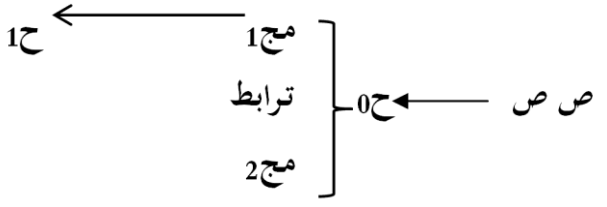

الصورة الصوتيّة تحيل إلى مدلول واحد جديد (ح1).

الخاتمة:

من خلال هذا العرض المفصّل لمفهوم التطوّر الدّلالي يمكن أن نضع مجموعة خواص له تتمثّل في[21]:

1. يسير ببطء وتدرّج.
2. يحدث بطريقين: طريق آليّ من تلقاء نفسه لا دخل فيه للإرادة الإنسانيّة. كما يمكن أن يكون ليد الإنسان دور فاعل فيه من خلال ما تقوم به المجامع اللّغويّة.
3. جبريّ الظّواهر؛ لأنّه يخضع في سيره لقوانين صارمة لا يمكن إيقافها أو تعويقها أو تغيير مسارها.
4. هناك ترابط بين الدلالتين القديمة والجديدة.
5. مقيّد في معظم الأحيان بالزمان والمكان.
6. إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره عند جميع أفراد تلك البيئة.

الهوامش والإحالات:

(1)- ضرغام الدّرة، التطور الدلالي في لغة الشعر، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2009، ص9.

(2)- فايز الدّاية، علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دراسة تأريخية تأصيلية نقدية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1996، ص21.

(3)- أحمد محمد قدور، التطور الدلالي في مصنفات اللحن حتى القرن العاشر الهجري، إشراف مازن المبارك، رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة دمشق، سوريا، 1988، ص11.

(4)- حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت، لبنان، ط2، 1990، ص93.

(5)-كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، دط، 1998، ص255.

(6)- محمد ناصر الدّين الألباني، الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، دت، 207/1.

(7)- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، 2004، بيروت، لبنان، 7/9.

(8)- المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، مادة (طار)، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، دط، 1889، 570/3.

(9)– محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، دار الفكر، بيروت، ط5، 1972، ص207.

(10)– ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ط3، 1972، ص169.

(11) – نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الجديد، دط، 2008، ص193.

(12)– إبراهيم السامرّائي، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص27.

(13)– رمضان عبد التواب، التطوّر الدلالي: مظاهره وعلله وقوانينه، مطبعة المدني، ط1، 1983، مصر، ص9.

(14)– بالمر، علم الدلالة، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985، ص24.

(15)– أحمد قدور، اللسانيّات وآفاق الدّرس اللّغويّ، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011، ص162.

(16)– إبراهيم السامرّائي، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص171.

(17)– ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ط3، 1972، ص171.

(18)– بيير جيرو، علم الدلالة، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، وحليم حسين فالح، وكاظم حسين باقر، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، العراق، 1980، ص71.

(19)– أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص153.

(20)– إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط6، مكتبة الأنجلو مصرية، ص23.

(21)– علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، 314، 315 [بتصرف].

قائمة المصادر المراجع:

1- إبراهيم السامرّائي، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
2- إبراهيم السامرّائي، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
3- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط2، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1996.
4- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ، مادة (طار)، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، دط، 1889.
5- أحمد محمد قدور، التطور الدلالي في مصنفات اللحن حتى القرن العاشر الهجري، إشراف مازن المبارك، رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة دمشق، سوريا، 1988.
6- أحمد محمد قدور، اللسانيّات وآفاق الدّرس اللّغويّ، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011.
7- بالمر، علم الدلالة، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985.
8- بيير جيرو، علم الدلالة، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، وحليم حسين فالح، وكاظم حسين باقر، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، العراق، 1980.
9- حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت، لبنان، ط2، 1990.

10-رمضان عبد التواب، التطوّر الدلالي: مظاهره وعلله وقوانينه، مطبعة المدني، مصر، ط1، 1983.
11-ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ط3، 1972.
12-ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ط3، 1972، ص169.
13-شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت.
14-ضرغام الدّرة، التطور الدلالي في لغة الشعر، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2009.
15-عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ج4، دت.
16-علي عبد الواحد وافي، علم اللغة والمجتمع، دار نهضة مصر، القاهرة، ط9، 1984.
17-فايز الدّاية، علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دراسة تأريخية تأصيلية نقدية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1996.
18-كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، دط، 1998.
19-محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، دار الفكر، بيروت، ط5، 1972.
20-محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، 2004، بيروت، لبنان.
21-محمد ناصر الدّين الألباني، الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، دت.
22-نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الجديد، دط، 2008.